فصل
[هذا فن غير ما تقدم في الموازنة بين التشبيه والتمثيل]

اعلم أني قد عرفتك أن كل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً، وثبت وجه الفرق بينهما. وهذا أصل إذا اعتبرته وعرضت كل واحد منهما عليه فوجدته يجيء في التشبيه مجيئاً حسناً وينقاد القياس فيه انقياداً لا تعسف فيه، ثم صادفته لا يطاوعك في التمثيل تلك المطاوعة ولا يجري في عنان مرادك ذلك الجري ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ما عرفت، وانفتح منه باب إلى دقائق وحقائق وذلك جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً وهو إذا استقريت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها. وذلك نحو أنهم يشبهون الشيء فيها بالشيء في حال ثم يعطفون على الثاني فيشبهونه بالأول فترى الشيء مشبهاً مرة ومشبهاً به أخرى.

فمن أظهر ذلك أنك تقول في النجوم كأنها مصابيح ثم تقول في حالة أخرى في المصابيح كأنها نجوم، ومثله في الظهور والكثرة تشبيه الخد بالورد والورد بالخد، وتشبيه الروض المنور بالوشي المنمنم ونحو ذلك. ثم تشبيه النقش والوشي في الحلل بأنوار الرياض وتشبيه العيون بالنرجس ثم تشبيه النرجس بالعيون كقول أبي نواس:

لدى نرجس غضّ القطاف كأنه إذا ما منحناه العيون عيون

وكذلك تشبيه الثغر بالأقاحي[1] ثم تشبيهها بالثغر كقول ابن المعتز:

---

(1) الأقاحي بالتشديد والأقاح جمع أقحوان بالضم ويقال بغير همز: وهو زهر له أوراق بيض مستطيلة قليلاً ووسطه أصفر، ومنه نوع صغير ليس له ورق ورائحته قوية يسمى البابونج.

والأقحوان كالثنايا الغُرِّ قد صقلت أنواره بالقطر

وقول التنوخي:

أقحوان معانق لشقيق كثغور تعضُّ ورد الخدود

وبعده وهو تشبيه النرجس بالعيون:

وعيون من نرجس تتراءى كعيون موصولة التسهيد

وكما يشبهون السيوف عند الانتضاء بعقائق البروق كما قال، ثم يعودون فيشبهون البرق بالسيوف المنتضاة كما قال ابن المعتز يصف سحابة:

وسارية لا تمل البكا جرى دمعها في خدود الثرى
سرت تقدح الصبح في ليلها ببرق كهندية تُنتضى

وكقول الآخر يصف نار السذق[1]:

وما زال يعلو عجاج الدخان إلى أن تكوَّن منه زُحَل
وكنا نرى الموج من فضة مُذَهّبة النور حين اشتعل
شراراً يحاكي انقضاض النجوم وبرقاً كإيماض بيض تسل

ومن لطيفه قول علي بن محمد بن جعفر:

دِمَنٌ كأن رياضها تسكين أعلام المطارف[2]
وكأنما غدرانها فيها عشور من مصاحف
وكأنما أنوارها تهتز في نكباء عاصف[3]

---

(1) السذق: ليلة الوقود عند الفرس وهي مشهورة عندهم، معرب شذه.

(2) الدمن جمع دمنة كسدر جمع سدرة وهي هنا الموضع القريب من الدار. والتسكين هنا غير ظاهر ولعله محرف عن «بسكين» وهو بالتصغير اسم موضع أو عن (تشكيل) أي تصوير، والمطارف جمع مطرف كمنبر وبضم الميم وفتح الراء قيل: وهو الأصل لأنه من أطرفه أي جعل في طرفيه العلمين، ولكنهم استثقلوا الضمة فكسروه ومعناه: رداء مربع من الخز فيه أعلام.

(3) النكباء: ريح انحرفت عن مهاب الرياح القوَّم ووقعت بين ريحين أو بين الصبا والشمال.

طـرر الـوصـائـف يـلـتـقـيـ ـن بـهـا إلـى طـرر الـوصـائـف[1]
وكـأن لـمـع بـروقـهـا فـي الـجـو أسـيـاف الـمـثـاقـف[2]

المقصود البيت الأخير ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكعاب تفرد عن الأتراب، فيظهر فيها ذل الاغتراب، والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين، واملا بالزين، منها إذا أفردت عن النظائر، وبدت فذة للناظر.

ويشبهون الجواشن[3] والدروع بالغدير يضرب الريح متنه فيتكسر ويقع فيه ذلك الشنج المعلوم كقوله[4]:

وبـيـضـاءَ زَغْـف نَـثـلـة سُـلـمـيَّـة لـهـا رفـرف فـوق الأنـامـل مـن عـلُ
وأشـبـرنـيـهـا الـهـالـكـي كـأنـهـا غدير جرت في متنه الريح سلسلُ[5]

وقال:

وسـابـغـة مـن جـيـاد الـدرو ع تـسـمـع لـلـسـيـف فـيـهـا صـلـيـلا
كـمـتـن الـغـديـر زهـتـه الـدبـور يـجـر الـمـدجـج مـنـهـا فـضـولا[6]

وقال البحتري:

يـمـشـون فـي زغـف كـأن مـتـونـهـا فـي كـل مـعـركـة مـتـون نـهـاء[7]

---

(1) الوصائف جمع وصيفة: وهي الجارية إذا تم قدها، وأراد بها هنا الأغصان وعواليها (ش).
(2) المثاقف: الملاعب بالسلاح اسم فاعل.
(3) الجواشن جمع جوشن كجعفر: وهو الدرع ومن معانيه الصدر قال شيخنا: ولعل الدرع أخذ منه وإنما يسمى جوشناً من الدرع ما أحاط بالصدر، هذا ما يظهر لي اهـ.
(4) الشنج بالتحريك: التقبض وأصله في الجلد من مس نار أو شدة برد.
(5) الزغف بالفتح والزغفة بالفتح والتحريك: الدرع الواسعة الطويلة اللينة أو المحكمة. والنثلة: الدرع الواسعة الطويلة، والسلمية: بالضم نسبة سماعية إلى سليمان بن داود «عليهما السلام»، والرفرف: جوانب الدرع وما تدلى منها؛ وأشبرنيها: أعطانيها والهالكي: الحداد قيل أول من صنع الحديد في العرب الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة.
(6) الدبور: الريح الغربية والمدجج بكسر الجيم المشددة وفتحها: اللابس السلاح لأنه يتغطى به من دججت السماء إذا تغيمت.
(7) النهاء بالكسر: أصغر محابس المطر، الواحدة نهاءة وبالضم أيضاً: ارتفاع الماء.

وهو من الشهرة بحيث لا يخفى. ثم إنهم يعكسون هذا التشبيه فيشبهون الغدران والبرك بالدروع والجواشن كقول البحتري يصف البركة:

إذا زهتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولاً حواشيها[1]

ومن فاتن ذلك وفاخره، لاستواء أوله في الحسن وآخره، قول أبي فراس الحمداني:

انظر إلى زهر الربيع والماء في البرك البديع[2]
وإذا الرياح جرت عليـ ـه في الذهاب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفا ئح بيننا حلق الدروع

وتشبه أنوار الرياض بالنجوم كقوله:

بكت السماء بها رَذاذ دموعها فغدت تبسم عن نجوم سماء[3]

ثم تشبيه النجوم بالنور كقوله:

قد أقذف العيس في ليل كأن به وشياً من النور أو روضاً من العشب

وكقول ابن المعتز:

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتُّح نور أو لجام مفضض[4]

وقال:

وتوقد المريخ بين نجومها كبهارة[5] في روضة من نرجس

---

(1) زهتها: علتها «ومضارع الفعل بهذا المعنى بالألف» والصباح: الريح الشرقية والحبك: بضمتين جمع حبيكة وهي الطريقة في الرمل ودرع الحديد والجواشن: الدروع.

(2) البرك جمع بركة «بالكسر فيهما» وهي الحوض ومستنقع الماء.

(3) الرذاذ: المطر الضعيف.

(4) تقدم البيت ناقصاً في صفحة [144 وتمّ إكماله].

(5) البهارة واحدة البهار بالفتح: وهو نبت طيب الرائحة، قال الجوهري وغيره: هو العرار (بالفتح أيضاً) الذي ينبت في أيام الربيع، قال ابن بري: وهو النرجس البري وقال شيخنا=

وكذلك تشبيه غرة الفرس الأدهم بالنجم أو الصبح، ويجعل جسمه كالليل كما قال ابن المعتز:

جاء سليلاً من أب وأم أدهم مصقول ظلام الجسم
قد سمرت جبهته بنجم[1]

وكما قال كاتب المأمون يصف فرساً:

قد بعثنا بجواد مثله ليس يرام
فرس يُزهى به الله حسن سرج ولجام[2]
وجهه صبح ولكن سائر الجسم ظلام
والذي يصلح للملو لى على العبد حرام

وقال ابن نباتة:

وأدهم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيه الثريا

ثم يعكس فيشبه النجم أو الصُبح بالغرة في الفرس ـ كقول ابن المعتز:

والصبح في طرة ليل مسفر كأنه غرة مهر أشقر

وتشبه الجواري في قدودهن بالسرو تشبيهاً عامياً مبتذلاً. ثم إنهم قد جعلوا فيه الفرع أصلاً فشبهوا السرو بهن كقوله:

حفت بسرو كالقيان ولحّفت خضر الحرير على قوام معتدل[3]
فكأنها والريح حين تُميلها تبغي التعانق ثم يمنعها الخجل

= هنا: نبت طيب الرائحة قد يكون له زهر أصفر وهنا يظهر أنه نوع منه له زهر أحمر اهـ أي يظهر من البيت.

(1) الذي في الديوان بعد الشطر الأول: «لا أقفلت من ولد يعقم» وقبل الأخير: «منتعل بجندلات صم» وسمرت: شدت ووثقت بالمسمار وفي نسخة «شمرت» بالمعجمة.

(2) يزهى: أي يتيه ويتكبر إذ السرج واللجام عليه، لكونها عليه لحسنه (ش).

(3) لحف الرجل إزاره بالتثقيل: جره خيلاء وليس بظاهر هنا ولعل الأصل ألحفت (مجهول) أي اتخذته لحافاً.

المقصود من البيت الأول ظاهر، وفي البيت الثاني تشبيه من جنس الهيئة المجردة من هيئات الحركة، وفيه تفصيل ظريف فاتن؛ فقد راعى الحركتين حركة التهيؤ للدنو والعناق، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق، وأدى ما يكون في الحركة الثانية من سرعة زائدة، تأدية تحسب معها السمع بصراً، تبيناً للتشبيه كما هو، وتصويراً لأن حركة الشجرة المعتدلة في حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها في خروجها من مكانها من الاعتدال، وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبداً من حركته إذا هم بالدنو، فإزعاج الخوف والوجل أبداً أقوى من إزعاج الرجاء والأمل، فمع الأول تمهل الاختبار، وسعة الحوار[1] ومع الثاني حفز الاضطرار، وسلطان الوجوب. وأعود إلى الغرض:

ومن تشبيه السرو بالنساء قول ابن المعتز:

ظلِلت بملهى خيرَ يوم وليلة تدور علينا الكأس في فتية زُهر
بكف غزال ذي عذار وطرة وصدغين كالقافين في طرفي سطر
لدى نرجس غض وسرو كأنه قدود جوار مِلن في أزر خضر

وتشبيه ثدي الكواعب بالرمان كقوله:

ربما تبيت أناملي يجنين رمان النحور

وقال المتنبي:

وقابلني رمانتا غصن بانة يميل به بدر ويمسكه حِقْف

وقوله:

يخطن بالعيدان في كل منزل ويجنين رمان الثدي النواهد

ثم يقلب فيشبّه الرمان بالثدي كقول القائل:

ورمانة شبهتها إذ رأيتها بثدي كعاب أو بحقة مرمر[2]

(1) الحوار بالفتح ويكسر: مراجعة الكلام.

(2) الكعاب كسحاب: الفتاة الناهد، والحقّة بالضم كالحقّ: وعاء للطيب وغيره مستدير في=

منمنمة صفراء نضد حولها يواقيت حمر في ملاء معصفر

= الغالب وكثيراً ما يكون من العاج كما جاء في معلقة ابن كلثوم:

وثدياً مثل حق العاج رخصاً حصاناً من أكف اللامينا

وتخيلوه من الدر أو وجد عند الأمراء والملوك كما قال ابن المعتز ـ وعند مثله يوجد:

كأن الثديّ على صدرها جِقاق من الدر في مرمر

خشين السقوط فأثبتنها بشبه المسامير من عنبر

وقد جمعت هذه المعاني وغيرها مما قيل في تشبيه الثديين بالحسيات والمعنويات وزدت عليه بما لم أسبق إليه أسلوباً ومعنى، فقلت في المقصورة الرشيدية بعد أبيات في الصدر:

ما كان ذان الناهدان قوقه الجاذبان طرف كل من رأى

الخافقان كالقلوب كلما اهـ تز قضيبُ قدّها أو انثنى

الناهضان ثمَ برهاني هوى لرَوعة الحسن وريعان الصّبا

ما كان ذان الناهدان الناهضا ن الخافقان الخالبان للسُّهى

حُقّين من دُرّ عليه أثبتا بشبه مسمارين من مسك ذكا

أو كرتي عاج على مرمره حيث الصوالح العقاص لا العصا

إذاً لهانا مطلبا وبذلا لكل من باع الحقاق واشترى

ولاهما رمانتا غصن وشى أعلاه ما نمَّ عليه ووشى

كيف وقد عز جناهما على حين نرى الرمان داني الجنى

ولا مليكان عليه ألبا تاجا من الياقوت عز وغلا

فثمة الملوك عبدان عنا لذلك السلطان أيهم عتا

ولاقران كوكبين ائتلقا بفلك في أفق شعر كالدجى

كعاشقين في الخفاء اعتنقا رمزاً إلى سر القِران في الخبا

فأين للدّريّ ما زانهما من لوعة تشب في كل حشا

ولم يكونا ركني المطاف من كعبة هذا الحسن قبلة الهوى

أنى وقد صينا بها وامتنعا من لمس من حج إليها وسعى

أو علمين حيث ذاك الحرم الآ من والحل كمرعى وحمى

كلا فلا أمن لمن منه دنا وإنما الآمن من عنه نأى

فكم قتيل ثم للعيون ما أقيد من قاتله ولا ودى

كما أبيح فيه صيد الإنس من دون طيور الجو أو وحش الفلا

تلك رجوم يقذف الغيب بها من هام في وادي الخيال وغوى

بل ذاك هيكل الجمال صدره عرش الكمال فوقه قد استوى =

وتشبه الجداول والأنهار بالسيوف، يراد بياض الماء الصافي وبصيصه مع شكل الاستطالة الذي هو شكل السيف كقول ابن المعتز:

أعددت للجار وللعفاة كوم الأعالي متساميات
روازقاً في المحل مطعمات[1]

يعني نخلاً ثم قال بعد أبيات:

تقَّى بأنهار مفجَّرات على حصى الكافور فائضات
مثل السيوف المتفريات[2]

وقول ابن بابك:

فما سيل تخلصه المحاني كما سلت من الخلل المناصل[3]

أبو فراس:

والماء يفصل بين زهـ ـر الروض في الشطين فصلا
كبساط وشي جَرَّدت أيدي العيون عليه نصلا

كشاجم:

وترى الجداول كالسيو ف لها سواق كالمبارد

آخر:

= ربان من تلك الغرانيق العلى في حلل الزينة صينا والحلى
لولا ضياهما معاً لجعلا للثانوي حجة يظهرا بما ادعى
تعبداً من ملل التوحيد والتثليـ ـث والشرك جبلاً كالحصى
من بلغ الهيكل مغرماً هدا ذينك النجدين منه فغوى

(1) الكوم بالضم جمع كوماء: وهي الناقة الضخمة السنام، وأكوم وهو البعير كذلك والكلام على التشبيه. والشاهد فيما بعده.

(2) من تفرّى الشيء بالتشديد: انشق يقال: تفرى الليل عن صبحه.

(3) المحاني: معاطف الأودية ومحابس الماء، والخلل جمع خلة بالكسر: وهي جفن السيف المغشى بالأدم أو بطانة جفن السيف مطلقاً، والمناصل: السيوف واحدها كمنخل.

وفي الجداول أسياف محادثة والطير تسجع إهزاجاً وإرمالا[1]

وقال ذو الرمة:

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت جداول أمثال السيوف القواطع

ابن الرومي:

على حفافي جدوَل مسجور أبيض مثل المهرق المنشور[2]
أو مثل متن الصارم المشهور

[القلب أو العكس في ظرفي التشبيه]

ثم يقلبون أحد طرفي التشبيه على الآخر فيشبهون السيوف بالجداول كقوله:

وتخال ما ضربوا بهن جداولا وتخال ما طعنوا به أشطانا[3]

ابن بابك:

وأهدى إلى الغارات عزماً مشيعاً وبأساً وباعاً في اللقاء ومقصلا[4]
سفيه مقط الطرتين أشيمه فيوحي إلى الأعضاء أن تترتلا[5]
أغرّ كأني حين أخضب خده خرقت به في ملتقى الروض جدولا

---

(1) المحادثة: المجلوة المصقولة. قال الشاعر: «كنصل السيف حودث بالصقال» والهزج والرمل بالتحريك: ضربان من ضروب التلحين ويطلق الهزج على الصوت فيه بحح وهو محبوب وعلى مطلق الصوت المطرب وأصله صوت الذبان. وأهزج الشاعر وأرمل: جاء بالهزج والرمل وهما بحران من بحور الشعر.

(2) الحفاف ككتاب: الجانب، والجدول: النهر الصغير، والمسجور: المملوء، والمهرق بضم الميم وفتح الراء: الصحيفة أو ثوب حرير أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه.

(3) الأشطان: الحبال أو الحبال التي يستقي بها خاصة.

(4) المشيع: العجول والشجاع كأنه شيع قلبه بما يركب كل هول. المقصل كمنبر: القطاع يوصف به السيف والجمل يحطم كل شيء بأنيابه.

(5) السفيه: المضطرب والمسرف في عمله، والمقط: من القط وهو القطع والطرة: طرف الشيء وجانبه، والمعنى أنه مسرف في القط والقطع بجانبيه إذ هو محدد الطرفين أو في جانبي الخصم بضربه ذات اليمين وذات الشمال. وشامه: سله، وأغمده ضد.

السري:

وكم خرق الحجاب إلى مقام تَوارَى الشمس فيه بالحجاب
كأن سيوفه بين العوالي جداول يطردن خلال غاب

وله أيضاً:

كأن سيوف الهند بين رماحه جداول في غاب سما وتأشبا[1]

وتشبه الأسنة كما لا يخفى بالنجوم كما قال:

وأسنة زرقا تخال نجوما

وقال البحتري:

وتراه في ظلم الوغى فتخاله قمراً يكر على الرجال بكوكب

يعنى السنان. وقال ابن المعتز:

وتراه يصغى في القناة بكفه نجماً ونجماً في القناة يجره[2]

ومثله سواء قوله:

كأنما الحربة في كفه نجم دجى شيعه البدر

ثم قد شبهوا الكواكب بالسنان كقول الصنوبري:

بشر بالصبح كوكب الصبح فاض وجنح الدجى كلا جنح[3]
فهو على الفجر كالسنان هوى للعين كما هوى على رمح

ابن المعتز:

---

(1) البيت من قصيدة في مدح الوزير المهلبي وفي رواية الديوان (علا وتأشبا) ومعنى تأشب الشجر: التف.

(2) يصغي الشيء إصغاء، يميله ونجماً مفعوله والمراد به كفه، و«نجماً» الثاني هو السنان والضمير في يجره يعود إليه (ش).

(3) قوله فاض يعني الكوكب، والمراد فيضان نوره، والجنح بالكسر ويُضم: الطائفة من الليل.

شربتها والديك لم ينتبه سكران من نومته طافح
ولاحت الشعرى وجوزاؤها كمثل زُج جره رامح

وهذه إن أردت الحق قضية قد سبقت وقدمت فقد قالوا: السماك الرامح على معنى أن كوكباً يتقدمه وهو رمحه! ولا شك أن جل الغرض في جعل ذلك الكوكب رمحاً أن يقدروه سناناً، فالرمح رمح بالسنان، وإذا لم يكن السنان فهو قناة، ولذلك قال:

* ورمحاً طويل القناة عسولا[1] *

ومن ذلك أن الدموع تشبه إذا قطرت على خدود النساء بالطل والقطر على ما يشبه الخدود من الرياحين كقول الناشيء:

بكت للحبيب وقد راعها بكاء الحبيب لبعد الديار
كأن الدموع على خدها بقية طل على جلنار[2]

وشبيه به قول ابن الرومي:

لو كنت يوم الوداع حاضرنا وهن يطفين غلة الوجد
لم تر إلا الدموع ساكبة تقطر من مقلة على خد
كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد

ثم يعكس كقول البحتري:

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي في خدود الخرائد

ومثله قول ابن المعتز بعد قوله في النرجس:

كأن عيون النرجس الغض حولها مداهن دُر حشوهن عقيق
إذا بلهنَّ القطن خلت دموعها بكاء عيون كحلهن خَلوق[3]

(1) العسول: الشديد الاهتزاز.
(2) الجلنار: زهر الرمان فارسي معرب أصله: كل بالكاف المفخمة وهو الورد، ونار وهو الرمان.
(3) الخلوق بوزن رسول: طيب مائع أصفر وقال شيخنا: يضرب إلى الصفرة لأن أغلب=

وفي فن آخر منه خارج عن جنس ما مضى يشبه الشيخ إذا أفناه الهرم، وحناه القدم حتى يدخل رأسه في منكبيه بالفرخ كما قال:

ثلاث مئين قد مضين كواملا وها أنا هذا أرتجي مرَّ أربع
فأصبحت مثل الفرخ في العين ثاوياً إذا رام تطياراً يقال له قَع

وهو كثير، ثم يعكس فيشبه الفرخ بالشيخ، كما قال أبو نواس يرثي خلف الأحمر:

لو كان حي وائلاً من التلف لوئلت شغواء في أعلى شعف
أمُ فريخ أحرزته في لحف مزغب الألغاد لم يأكل بكف
كأنه مستقعد من الخرف[1]

وأعاده في قصيدة أخرى في مرثيته[2]:

لا تئل العصم في الهضاب ولا شغواء تغذو فرخين في لحف
تحنو بجؤشوشها على ضَرِم كقعدة المنحني من الخرف[3]

= أجزائه الزعفران. قال: وكأنه أراد ما يبدو من لون الحمرة في قطرات الماء ولا يكون حمرة زاهية بل يميل إلى الصفرة اهـ.

(1) وألّ «كضرب» نجا أو طلب النجاة. والشغواء بالغين المعجمة: العقاب لزيادة منقارها الأعلى على الأسفل كالسن الشغواء والشاغية أي الزائدة على الأسنان، والشعف: جمع شعفة بالتحريك فيهما وهي رأس الجبل وأعلى كل شيء. واللحف بالكسر: أصل الجبل وحرك الحاء للضرورة إلا أن تكون لغة. والزغب: الذي نبت زغبه وهو بالتحريك الشعر والريش أول ما يبدو في الصبى أو الفرخ وكذا الصغير منهما. والألغاد جمع لغد بالضم وهو لحمة في الحلق وقيل: التي بين الحنك وصفحة العنق أو منتهى شحمة الأذن من أسفلها وقيل غير ذلك.

(2) قوله: أعاده أي المعنى والسبب في ذلك أن خلفاً أحب أن يرثى في حياته فرثاه تلميذه أبو نواس بالرجز الذي ذكر هنا بعضه أولاً فأعجبه وقال: كنت أحب أن يكون قصيداً فقال أبو نواس: أنا أحوله إلى القصيد وفعل.

(3) العصم جمع أعصم وهو ما كان من الوعول والظباء في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر. والغراب الأعصم هو الأحمر الرجلين والمنقار. والجؤشوش «كعصفور» والجأش: الصدر. والضرم «ككتف»: فرخ العقاب ومن معانيه: الجائع والفرس العداء.

ويشبه الظليم في حركة جناحيه مع إرسال لهما بالخباء المقوض أنشد أبو العباس لعلقمة:

صعلٌ كأن جناحيه وجؤجؤه بيت أطافت به خرقاء مهجوم[1]

اشترط أن يتعاطى تقويضه خرقاء ليكون أشد لتفاوت حركاته، وخروج اضطرابه عن الوزن. وقال ذو الرمة:

وبيض رفعنا بالضحى عن متونها سماوة جون كالخباء المقوض
هَجوم عليها نفسه غير أنه متى يُرْم في عينيه بالشبح ينهض

قالوا في تفسيره: يعني بالبيض بيض النعام و «رفعنا» أي أثرنا عن ظهورها. و «سماوة جون» أي شخص نعام جون، وسماوة الشيء شخصه والجون الأسود ههنا، لأنه قابل بين البياض والسواد. ثم شبه النعام في حال إثارته عن البيض بالخباء المقوض، وهو الذي نزعت أطنابه للتحويل، والبيت الثاني من أبيات الكتاب[2]، أنشده شاهداً على إعمال فعول عمل الفعل وذلك قوله: «هجوم عليها نفسه». فنفسه منصوب بهجوم على أنه من هجم متعدياً، نحو: هجم عليها نفسه أي طرحها عليها، كأنه أراد أن يصف الظليم في خوفه بأمرين متضادين، بأن يبالغ في الانكباب على البيض فعل من شأنه اللزوم والثبات، وأن يثيره عنها الشيء اليسير، نحوأن يقع بصره على الشخص من بعد فعل من كان مستوفزاً في مكانه غير مطمئن ولا موطن نفسه على السكون. وقوله: «يرم في عينيه بالشبح» كلام ليس لحسنه نهاية.

وقد قال ابن المعتز فعكس هذا التشبيه فشبه حركة الخباء بالطائر إلا أنه راعى أن يكون هناك صفة مخصوصة فشرط في الطائر أن يكون مقصوصاً وذلك قوله:

---

(1) الظليم: ذكر النعام والصعل: دقيق الرأس طويله والجؤجؤ: الصدر. وأطافت به: ألمت والخرقاء: الحمقاء، والريح المختلفة الهبوب لا تدوم على جهة واحدة ويؤخذ من الأساس أن الوصف للريح مجاز وللمرأة الحمقاء حقيقة. والبيت المهجوم هو الذي حلت أطنابه.

(2) أي كتاب سيبويه.

ورفعنا خباءنا تضرب الريـ ـح حشاه كالجاذف المقصوص[1]

وأخرجه إلى هذا الشرط أنه أراد حركة خباء ثابت غير مقوض إلا أن الريح تقع في جوفه فتحرك في جانبيه على توال، كما يفعل المقصوص إذا جذف وذلك أن يرد جناحيه إلى خلفه فيتحرك جانباه، فحصل له أمران أحدهما: أن الموفور الجناح يبسط جناحيه في الأكثر وذلك إذا صف في طيرانه فلا يدوم ضربه بجناحيه، والمقصوص لقصوره عن البسط يديم ضربهما. والثاني: تحريك الجناحين إلى خلف. وهذا كثير جداً وتَتبّعه في كل باب ونوع من التشبيه يشغل عن الغرض من هذه الموازنة. وإنما يمتنع هذا القلب في طرفي التشبيه لسبب يعرض في البين فيمنع منه ولا يكون من صميم الوصف المشترك بين الشيئين المشبّه أحدهما بالآخر[2].

فمن ذلك وهو أقواه فيما أظن أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد في الوصف الذي لأجله يشبه، ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه.

بيان هذا أن ههنا أشياء هي أصول في شدة السواد كخافية الغراب والقار ونحو ذلك فإذا شبهت شيئاً بها كان طلب العكس في ذاك عكساً لما يوجبه العقل ونقضاً للعادة، لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف لا أن يتكلف في المعروف تعريف بقياسه على المجهول وما ليس بموجود على الحقيقة. فأنت إذا قلت في شيء هو كخافية الغراب فقد أردت أن تثبت له سواداً زائداً على ما يعهد في جنسه وأن تصحح زيادة مجهولة له. وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب في السواد فليت شعري ما الذي تريد من قياسه على غيره فيه ولهذا المعنى ضعف بيت البحتري:

على باب قنسرين والليل لاطخ جوانبه من ظلمة بمداد[3]

---

(1) جذف الطائر «كضرب»: أسرع [تحريكَ جناحيه إنْ قُصّ أحدُ الجناحين].

(2) الصميم بالمهملة: المحض الخالص بدون عارض.

(3) على باب متعلق بما في البيت قبلة وهو: =

وذاك أن المداد ليس من الأشياء التي لا مزيد عليها في السواد. كيف ورب مداد فاقد اللون، والليل بالسود وشدته أحق وأحرى أن يكون مثلاً، ألا ترى إلى ابن الرومي حيث قال:

حبر أبي حفص لعاب الليل يسيل للإخوان أي سيل[1]

فبالغ في وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل وكأن البحتري نظر إلى قول العامة في الشيء الأسود هو كالنقس ثم تركه للقافية[2].

فإن قلت: فينبغي على هذا أن لا يجوز تشبيه الصبح بغرة الفرس لأجل أن الصبح بالوصف الذي لأجله شبه الغرة به أخص، وهو فيه أظهر وأبلغ، والتفاوت بينهما كالتفاوت بين خافية الغراب والقار وبين ما يشبه بهما. فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإن تشبيه غرة الفرس بالصبح حيث ذكرت لم يقع من جهة المبالغة في وصفها بالضياء والانبساط وفرط التلألؤ. وإنما قصد أمر آخر وهو وقوع منير في مظلم، وحصول بياض في سواد؛ ثم البياض صغير قليل بالإضافة إلى السواد، وأنت تجد هذا التشبيه على هذا الحد في الأصل، فإذا عكست فقلت: كان الصبح عند ظهور أوله في الليل غرة في فرس أدهم لم تقع في مناقضة، كما أنك لو شبهت الصبح في الظلام بعلم بياض على ديباج أسود لم تخرج عن الصواب، وعلى نحو من ذلك قول ابن المعتز:

فحلت الدجى والفجر قد مد خيطه رداء موشّى بالكواكب مُعلما

فالعلم في هذا الرداء هو الفجر بلا شبهة. وله وهو صريح ما أردت:

وليلتنا والراح عجلى تحثها فنون غناء للزجاجة حاد

أي كان مع حبيته في إدارة الكؤوس واستماع الغناء طول الليل على باب قنسرين.

(1) نقل شارح شواهد الإيضاح عن ديوان ابن الرومي في مدح جرد بن حفص الوراق:

حبر أبي حفص لعاب الليل كأنه ألوان دهم الخيل

يجري إلى الإخوان جري السيل بغير وزن وبغير كيل

(2) النقس بالكسر هو المداد الذي يكتب به.

والليل كالحلة السوداء لاح به من الصباح طراز غير مرقوم[1]

وإن كان التفاوت في المقدار بين الصبح والطراز في الامتداد والانبساط شديداً، وكذلك تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة وبالدينار الخارج من السكة كما قال ابن المعتز:

وكأن الشمس المنيرة دينا رٌ جلته حدائق الضرّاب

حسن مقبول وإن عظم التفاوت بين نور الشمس ونور المرآة والدينار أو الجرم، لأنك لم تضع التشبيه على مجرد النور والائتلاق وإنما قصدت إلى مستدير يتلألأ ويلمع ثم خصوص في جنس اللون يوجد في المرآة المجلوة والدينار المتخلص من حمى السكة كما يوجد في الشمس. فأما مقدار النور وأنه زائد أو ناقص، ومتناه أو متقاصر، وللجرم أعظيم هو أم صغير؟ فلم تعرض له، ويستقيم لك العكس في هذا كله نحو أن تشبه المرآة بالشمس. وكذلك لو قلت في الدينار كأنه شمس أو قلت كأن الدنانير المنثورة شموس صغار، لم تتعد.

وجملة القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة في إثبات الصفة للشيء والقصد إلى إيهام في الناقص أنه كالزائد، واقتصر على الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة والشكل واللون، أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حد، ويوجد هو أو قريب منه في الأصل، فإن العكس يستقيم في التشبيه ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقم.

وقد يقصد الشاعر على عادة التخييل أن يوهم في الشيء ـ هو قاصر عن نظيره في الصفة ـ أنه زائد عليه في استحقاقها واستيجاب أن يُجعل أصلاً فيها، فيصح على موجب دعواه وشوقه إلى أن يجعل الفرع أصلاً، وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه، ومثاله قول محمد بن وهيب:

(1) به أي: فيه والضمير لليل.

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح[1]

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور والضياء من الصباح، فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعاً ووجه الخليفة أصلاً.

واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم: لا يدري أوجهه أنور أم الصبح؟ وغرته أضوأ أم البدر؟ وقولهم إذا أفرطوا: نور الصباح يخفى في ضوء وجهه، أو نور الشمس مسروق من جبينه، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة، فإن في الطريقة الأولى خلابة وشيئاً من السحر. وهو أنه كان يستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد في طلب تشبيه يفهم به أمره. وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر، ويفيدكم من غير أن يظهر ادعاؤه لها لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ويزجي الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوى، ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر وتجهم معترض وتهكم قائل: «لمَ» و «من أين لك ذلك؟» والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص، وحدث بها نوع من الفرح عجيب، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة، والصنيعة لم ينغصها اعتداد المصطنع لها.

وفي هذا الموضع تشبيه بالنكتة التي ذكرتها في التجنيس لأنك في الموضعين تنال الربح في صورة رأس المال، وترى الفائدة قد ملأت يدك، من حيث حسبتها قد جازتك وأضلتك، وتجد على الجملة الوجود من حيث توهمت العدم.

ولطيفة أخرى وهي أن من شأن المدح إذا ورد على العاقل أن يقفه بين أمرين يصعب الجمع بينهما وتوفية حقهما: معرفة حق المادح على ما احتشد له من تزيينه وقصده من تفخيم شأنه في عيون الناس بالإصغاء إليه والارتياح له،

---

(1) قيل البيت:

حتى استرد الليل خلعته وبدا خلال سواده وضح

والدلالة بالبشر والطلاقة على حسن موقعه عنده، وملك النفس حتى لا يقلبها السرور عليه[1] ويخرج بها إلى العجب المذموم وإلى أن يقول «أنا» فيقع في ضعة الكبر من حيث لا يشعر، ويظهر عليه من أمارته ما يذم لأجله ويحقر، فما كبر أحد في نفسه إلا أغان الكبر عقله، وفسخ عقده من أجله. وهذا موقف تزل فيه الأقدام، بل تخف عنده الحلوم، حتى لا يسلم من جزع النفس هناك إلا أفراد الرجال، وإلا من أدام التوفيق صحبته، ومن أين ذلك وأنى؟ فإذا كان المدح على صورة قوله: «وجه الخليفة حين يمتدح» خف عنه الشطر من تكاليف هذه الخصلة.

[رد الفرع إلى الأصل في التمثيل وحكمه]

وإذ قد تبين كيف يكون جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً في التشبيه الصريح فارجع إلى التمثيل وانظر هل تجيء فيه هذه الطريقة على هذه السعة والقوة، ثم تأمل ما حمل من التمثيل عليها كيف حكمه وهل هو مساو لما رأيت في التشبيه الصريح، وحاذ حذوه على التحقيق؟ أم الحال على خلاف ذلك؟. والمثال فيما جاء من التمثيل مردوداً فيه الفرع إلى موضع الأصل والأصل إلى محل الفرع قوله:

وكأن النجوم بين دجاه سنن لاح بينهن ابتداع

وذلك أن تشبيه السنن بالنجوم تمثيل، والشبه عقلي، وكذلك تشبيه خلافها من البدعة والضلالة بالظلمة، ثم إنه عكس فشبه النجوم بالسنن كما يفعل فيما مضى من المشاهدات، إلا أنا نعلم أنه لا يجري مجرى قولنا كأن النجوم مصابيح تارة، وكأن المصابيح نجوم أخرى. ولا يجري مجرى قولك: كأن السيوف بروق تنعق، وكأن البروق سيوف تُسَلّ من أغمادها فتبرق، ونظائر ذلك فيما مضى، وذلك أن الوصف هناك لا يختلف من حيث الجنس والحقيقة وتجده العين في الموضعين وليس هو في هذا مشاهداً محسوساً وفي الآخر معقولاً متصوراً بالقلب ممتنعاً فيه الإحساس. فأنت تجد في السيوف لمعاناً على هيئة مخصوصة من الاستطالة وسرعة

(1) قوله: وملك عطف على معرفة وهو ثاني الأمرين، وقلبها: حوّلها.

الحركة تجده بعينه أو قريباً منه في البروق. وكذلك تجد في المداهن من الدر حشوهن عقيق من الشكل واللون والصورة ما تجده في النرجس حتى يتطرق أن يشتبه الحال في الشيء من خلل فيظن أن أحدهما الآخر[1]، فلو أن رجلاً رأى من بعيد بريق سيوف تنتضى من الغمود لم يبعد أن يغلط فيحسب أن بروقاً أنعقت، وما لم يقع فيه الغلط كان حاله قريباً مما يجوز وقوع الغلط فيه. ومحال أن يكون الأمر كذلك في التمثيل لأن السنن ليست بشيء يتراءى في العين فيشتبه بالنجوم، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم، وإنما يقصد بالتشبيه في هذا الضرب ما تقدم من الأحكام المتأولة من طريق المقتضى، فلما كانت الضلالة والبدعة وكل ما هو جهل، تجعل صاحبها في حكم من يمشيء في الظلمة فلا يهتدي إلى الطريق ولا يفصل الشيء من غيره حتى يتردى في مهواة ويعثر على عدو قاتل وآفة مهلكة لزم من ذلك أن تشبه بالظلمة. ولزم على عكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشريعة وكل ما هو علم بالنور.

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن طريقة العكس لا تجيء في التمثيل على حدها في التشبيه الصريح وأنها إذا سلكت فيه كان مبنياً على ضرب من التأول والتخيل يخرج عن الظاهر خروجاً ويبعد عنه بعداً شديداً. فالتأويل في البيت أنه لما شاع وتعورف وشهر وصف السُّنة ونحوها بالبياض والإشراق، والبدعة بخلاف ذلك كما قال النبيﷺ، «أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها» وقيل هذه حجة بيضاء، وقيل للشبهة وكل ما ليس بحق أنه مظلم، وقيل: سواد الكفر وظلمة الجهل، يخيل أن السنن كلها جنس من الأجناس التي لها إشراق ونور وابيضاض في العين، وأن البدعة نوع من الأنواع وأن لها[2] فضل اختصاص بسواد اللون، فصار تشبيهه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع على قياس تشبيههم النجوم في الظلام ببياض الشيب في سواد الشباب أو بالأنوار وائتلاقها بين النبات الشديد الخضرة. فهذا ههنا كأنه ينظر إلى طريقة قوله: «وبدا الصباح كأن غرته» في بناء

(1) الخلل: الخطأ.

(2) الظاهر أن يقال: التي لها... الخ كالذي قبله ولم يلاحظ ذلك شيخنا في الدرس لصحة المعنى.

التشبيه على تأويل هو غير الظاهر، إلا أن التأويل هناك أنه جعل في وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد. والتأويل ههنا أنّه خيّل ما ليس بمتلون كأنه متلون ثم بنى على ذلك.

ومن هذا الباب قول الآخر:

ولقد ذكرتك والزمان كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد فيقال: اسودَّ النهار في عيني وأظلمت الدنيا عليَّ، جعل يوم النوى كأنه أعرف وأشهر بالسواد من الظلام فشبه به، ثم عطف عليه فؤاد من لم يعشق تظرفاً وإتماماً للصفة، وذلك أن الغزل يدعي القسوة على من لم يعرف العشق، والقلب القاسي يوصف بشدة السواد فصار هذا القلب عنده أصلا في الكدرة والسواد فقاس عليه. وعلى ذلك قول العامة: ليل كقلب المنافق أو الكافر. إلا أن في هذا شوباً من الحقيقة من حيث يتصور في القلب أصل السواد ثم يدعي الإفراط، ولا يدعي في البدعة نفس السواد لأنها ليس مما يتلون، لأن اللون من صفات الجسم، فالذي يساويه في الشبه المساواة الثابتة قولهم: أظلم من الكفر ـ كما قال ابن العميد في كتاب يداعب فيه ويظهر التظلم من هلال الصوم ويدعو على القمر فقال: «وأرغب إلى اللَّه تعالى في أن يقرب على القمر دوره، وينقص مسافة فلكه» ثم قال بعد فصل: «ويسمعني النَّعرة في قفا شهر رمضان[1] ويعرض عليَّ هلاله أخفى من السحر، وأظلم من الكفر».

وإن تأولت في قوله: «سنن لاح بينهن ابتداع» أنه أراد معنى قولهم: إن سواد الظلام يزيد النجوم حسناً وبهاء كان له مذهب. وذلك أنه لما كان وقوف العاقل على بطلان الباطل، واطلاعه على عوار البدعة، وخَرْقُه الستر عن فضيحة الشبهة، يزيد الحق نبلاً في نفسه، وحسناً في مرآة عقله، جعل هذا الأصل من المعقول مثالاً للمشاهد المبصر هناك، إلا أنه على ذلك لا يخرج من أن يكون

(1) النعرة: الصوت ويريد بها الصيحة والعويل عليه (ش) لعله وهو يشير إلى ما هو معروف منذ قرون بتوديع المؤذنين لشهر رمضان عند قرب انتهائه.

خارجاً عن الظاهر أن يمثل[1] المعقول في ذلك بالمحسوس كما فعل البحتري في قوله:

وقد زادها إفراط حسن جوارُها خلائق أصفار من المجد خُيَّبِ[2]
وحسن درارِيّ النجوم بأن تُرى طوالع في داج من الليل غيهب

فبك مع هذا الوجه حاجة إلى مثل ما مضى [من] تنزيل السنة والبدعة منزلة ما يقبل اللون ويكون له في رأي العين منظر المشرق المتبسم، والأسود الأقتم[3] حتى يراد أن لون هذا يزيد في بريق ذاك وبهائه وحسنه وجماله، وفي القطعة التي هذا البيت منها غيرها مما مذهبه المذهب الأول وهو:

رُبَّ ليل قطعته كالصدود وفراق ما كان فيه وداع
موحش كالثقيل تقذى به العيـ ـن وتأبى حديثه الأسماع
وكأنّ النجوم [بين دجاه سنن لاح بينهنّ ابتداع

وبعده:

مشرقاً كأنهن حجاج يقطع الخصم والظلام انقطاع

ومما حقه أن يعد في هذا الباب قول القائل:

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه نجاء من البأساء بعد وقوع[4]

وذلك أن العادة أن يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذي ينحسر عنه الغمام، والشبه بين البأساء والغمام والظلماء من طريق العقل لا من طريق الحس، وأوضح منه في هذا القول ابن طباطبا:

---

(1) «أن يمثل» بدل من الظاهر أو أن «من» الجارة المحذوفة من الكلام بيان للظاهر (ش) والمعنى أنه مع ذلك خروج عن الظاهر الذي هو تمثيل المعقول بالمحسوس، وقلما تجد لعبد القاهر ركاكة كقوله هنا: لا يخرج من أن يكون خارجاً الخ.

(2) الأصفار جمع صفر بمعنى الخالي. و«من المجد» متعلق به باعتبار المعنى.

(3) الأقتم: الذي تعلوه القتمة وهي بالتحريك: السواد.

(4) النجاء كالنجاة.

صحوٌ وغيم وضياء وُظلم مثل سرور شابهُ عارضُ غمّ

ومن حد ما يقع في هذا الباب قول التنوخي في قطعة وهي قوله:

أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا
فالأرض تحت ضريب الثلج تحسبها قد أُلبست حبكاً أو غشّيت ورِقا[1]
فانهض بنار إلى فحم كأنهما في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا

والمقصود «فانهض بنار إلى فحم» فإنه لما كان يقال في الحق إنه منير واضح لائح فتستعار له أوصاف الأجسام المنيرة، وفي الظلم خلاف ذلك تخيلهما شيئين لهما ابيضاض واسوداد وإنارة وإظلام فشبه النار والفحم بهما.

ومن هذا الباب قول ابن بابك:

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها وقد كحل الليل السماك فأبصرا

لما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق وكثر ذلك واستمر توهمه حقيقة فقابل بين سعة الأرض التي هي سعة حقيقة وأخلاق الكريم.

ومثله قول أبي طالب المأموني:

وفلا كآمال يضيق بها الفتى لا تصدق الأوهام فيها قيلا
أقريتها بشِملة تقري الفلا عنقاً وتقريها الفلاة نحولا[2]

(1) الضريب: الثلج والجليد، وتقدم تفسير الحبك وأن من معانيه الدروع وهي المراد هنا كما قال شيخنا. وغشيت بالتشديد من غشاه إذا غطاه وستره وهو كأغشاه يتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ [يونس: 27] والورق: الفضة ووزنه كالكتف.

(2) الشملة بكسر الشين والميم وتشديد اللام: الناقة السريعة، والإقراء: طلب القرى وهو بالكسر الضيافة كالاقتراء والاستقراء. وقرى الضيف قرّى وقراه تقرية: ضيّفه تضيفاً وقرى البلاد: تتبعها وطافها يخرج من أرض ويدخل في أخرى، ففي قوله: «تقري الفلا عنقاً» تورية. والعنق بالتحريك: سير مسبطر فسيح واسع للإبل والدواب وهو اسم من أعنق.

[القياس في التشبيه وتشبيه الحقيقة والمجاز]

قاس الفلا في السعة وهي حقيقة فيها على الآمال وهي إذا وصفت بالسعة كان مجازاً بلا شبهة ولكن لما كان يقال: آمال طوال وآمال لا نهاية لها واتسعت آماله وأشباه ذلك صارت هذه الأوصاف كأنها موجودة فيها من طريق الحس والعيان. وعلى ذكر الأمل فمن لطيف ما جاء في التشبيه به على هذا الحد وإن لم يكن في معنى السعة والامتداد، ولكن في الظلمة والاسوداد، قول ابن طباطبا:

رب ليل كأنه أملي فيـ ـك وقد رحت عنك بالحرمان
جُبته والنجوم تنعش في الأفـ ـق وتطرفن كالعيون الزواني[1]
هارباً من ظلام فعلك في نحـ ـو ضياء الفتى الأغر الهجان[2]

لما كان يقال في الأمر لا يرجى له نجاح: قد أظلم علينا هذا الأمر وهذا أمر فيه ظلمة، ثم أراد أن يبالغ في التباس وجه النجح عليه في أمله تخيل كأن أمله شخص شديد السواد فقاس ليله به كأنه يقول: تفكرت فيما أعلمه من الأشياء السود فرأيت صورة أملي فيك زائدة على جميعها في شدة السواد فجعلته قياساً في ظلمة ليلي الذي جبته.

ومن الباب وهو حسن قول ابن المعتز:

لا تخلطوا الدوشاب في قدح بصفاء ماء طيب البرد[3]
لا تجمعوا باللَّه ويحكم غلظ الوعيد ورقة الوعد

لما كان يقال: أغلظ له القول، ويوصف الجافي وكل من أساء وقال ما يكره بالغلظ، ويوصف كلام المحسن ومن يعمد إلى الجميل باللطافة ـ جعل

(1) جبته: قطعته ونعش طرفه (بالمثلثة من باب فتح): رفعه لينظر، وطرفت العين طرفاً من باب ضرب: تحركت.
(2) الهجان ككتاب: الخيار من كل شيء ورجل هجان: كريم الحسب.
(3) الدوشاب: نبيذ التمر معرب، أو الأسود كما في شرح ديوان ابن الرومي. وقال السمعاني أنه الدبس بالعربية.

الوعيد والوعد أصلاً في الصفتين، وقاس عليهما. فأما قول الآخر:

شربت على سلامة فتكين شراباً صفوه صفو اليقين

فهو على الحقيقة لا يدخل في تشبيه الحقيقة بالمجاز، لأن الصفاء خلوص الشيء وخلوه من شيء يغيره عن صفته، إلا أنه من حيث يقع في الأكثر لما له بريق وبصيص، كان كأنه حقيقة في المحسوسات ومجاز في المعقولات. وأما قولهم: هواء أرق من تشاكي الأحباب، فمن الباب، لأن الرقة في الهواء حقيقة، وفي التشاكي مجاز. وهكذا قول أبي نواس في خلاعته: «حتى هي في رقة ديني» لأن الرقة من صفات الأجسام فهي في الدين مجاز.

ومما كأنه يدخل في هذا الجنس قول المتنبي:

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وأبعد ما يكون الشاعر من التوفيق إذا دعته شهوة الإغراب إلى أن يتعير للهزل والعبث من الجد ويتغزل بهذا الجنس.

ومما هو حسن جميل من هذا الباب، قول الصاحب كتب به إلى القاضي أبي الحسن. روى عن القاضي أنه قال: انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد فجاءني رسوله بعطر الفطر ومعه رقعة فيها هذان البيتان:

يا أيها القاضي الذي نفسي له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدي له أخلاقه

وكون هذا التشبيه مما نحن فيه من الترجيح[1] أوضح ما يكون، فليس يخاف أن العادة أن يشبه الثناء بالعطر ونحوه، ويشتق منه وقد عكس، كما ترى، وذلك على ادعاء أن ثناءه أحق بصفة العطر وطيبه من العطر وأخص به، وأنه قد صار أصلاً حتى إذا قيس نوع العطر عليه فقد بولغ في صفته بالطيب، وجعل له في الشرف والفضل على جنسه أوفر نصيب.

(1) أي ترجيح جانب المجاز وجعله أصلاً يشبه به، وفي نسخة: التوضيح.

[جعل الفرع أصلاً في التشبيه وعكسه]

وإذا قد عرفت الطريقة في جعل الفرع أصلاً في التمثيل؛ فارجع وقابل بينه وبين التشبيه الظاهر، تعلم أن حاله في الحقيقة مخالفة للحال ثم. وذلك أنك لا تحتاج في تشبيه البرق بالسيوف، والسيوف بالبرق، إلى تأويل أكثر من أن العين تؤدي إليك من حيث الشكل واللون وكيفية اللمعان، صورة خاصة تجدها في كل واحد من الشيئين على الحقيقة، ولا يمكننا أن نقول إن الثريا شبهت باللجام المفضض، وبعنقود الكرم المنور، وبالوشاح المفصل لتأويل كذا، بل ليس بأكثر من أن أنجم الثريا لونها لون الفضة، ثم إن أجرامها في الصغر قريبة من تلك الأطراف المركبة على سيور اللجام، ثم إنها في الاجتماع والافتراق على مقدار من مواقع تلك، وكذا القول في العنقود. فإن تلك الأنوار مشاكلة في البياض، وفي أنها ليست متضامة تضام التلاصق، ولا هي شديدة التباين حتى يبعد الفصل بين بعضها وبعض، بل مقاديرها في القرب والبعد على صفة قريبة مما يتراءى في العين من مواقع تلك الأنجم.

وإذا كان مدار الأمر على أن العين تصف من هذا ما تصف من ذاك، لم يكن تشبيه اللجام المفضض بالثريا إلا كتشبيه الثريا به. والحكم على أحدهما بأنه فرع أو أصل يتعلق بقصد المتكلم، فما بدأ به في الذكر فقد جعله فرعاً، وجعل الآخر أصلاً، وليس كذلك قولنا: له خلق كالمسك، وهو في دنوه بعطائه وبعده بعزه وعلائه، كالبدر في ارتفاعه مع نزول شعاعه. لأن كون الخلق فرعاً، والمسك أصلاً، أمر واجب، من حيث كان المعلوم من طريق الإحساس والعيان متقدماً على المعلوم من طريق الروية وهاجس الفكر.

وحكم هذا في أن الفرع لا يخرج عن كونه فرعاً على الحقيقة حكم ما طريق التشبيه فيه المبالغة من المشاهدات والمحسوسات كقولك: هو كحلك الغراب في السواد لما هو دونه فيه[1]. وقولك في الشيء من الفواكه مثلاً: هو

(1) حلك الغراب بالتحديد: حنكه وقيل سواده.

كالعسل فكما لا يصح أن يعكس فيشبه حلك الغراب بما هو دونه في السواد، والعسل بما لا يساويه في صدق الحلاوة، كذلك لا يصح أن تقول هذا مسك كخلق فلان، إلا على ما قدمت من التخييل. ألا ترى أنه كلام لا يقوله إلا من يريد مدح المذكور. فأما أن يكون القصد بيان حال المسك على حد قصدك أن تبين حال الشيء المشبه بحلك الغراب في السواد، والمشبه بالعسل في الحلاوة فممّا لا يكون. كيف ولولا سبق المعرفة من طريق الحس بحال المسك، ثم جريان العرف بما جرى من تشبيه الأخلاق به، واستعارة الطيب لها منه، لم يتصور هذا الذي تريد تخييله من أنا نبالغ في وصف المسك بالطيب تشبيهاً بخلق الممدوح، وعلى ذلك قولهم: «كأنما سرق المسك عرفه من خلقك، والعسل حلاوته من لفظك». هو مبني على العرف السابق من تشبيه الخلق بالمسك، واللفظ بالعسل. ولو لم يتقدم ذلك ولم يتعارف ولم يستقر في العادات لم يعقل لهذا النحو من الكلام معنى، لأن كل مبالغة ومجاز فلا بد من أن يكون له استناد إلى حقيقة.

وإذا ثبتت هذه الفروق والمقابلات بين التشبيه الصريح الواقع في العيان، وما يدركه الحس، وبين التمثيل الذي هو تشبيه من طريق العقل والمقاييس التي تجمع بين الشيئين في حكم تقتضيه الصفة المحسوسة، لا في نفس الصفة، كما بينت لك في أول قول ابتدأته في الفرق بين التشبيه الصريح وبين التمثيل من أنك تشبه اللفظ بالعسل، على أنك تجمع بينهما في حكم توجيه الحلاوة دون الحلاوة نفسها ـ فههنا لطيفة أخرى ـ تعطيك للتمثيل مثالاً من طريق المشاهدة، وذاك أنك بالتمثيل في حكم من يرى صورة واحدة، إلا أنه يراها تارة في المرآة وتارة على ظاهر الأمر.

وأما في التشبيه الصريح؛ فإنك ترى صورتين على الحقيقة. يبين ذلك أنا لو فرضنا أن تزول عن أوهامنا ونفوسنا صور الأجسام في القرب والبعد وغيرهما من الأوصاف الخاصة بالأشياء المحسوسة، لم يمكنا تخيل شيء من تلك الأوصاف في الأشياء المعقولة، فلا يتصور معنى كون الرجل بعيداً من حيث العزة والسلطان، قريباً من حيث الجود والإحسان، حتى يخطر ببالك، وتطمح بفكرك

إلى صورة البدر وبعد جرمه عنك، وقرب نوره منك، وليس كذلك الحال في الشيئين يشبه أحدهما الآخر من جهة اللون والصورة والقدر؛ فإنك لا تفتقر في معرفة كون النرجس وخرطه واستدارته، وتوسط أحمره لأبيضه، إلى تشبيهه بمداهن در حشوهن عقيق، كيف وهو شيء تعرضه عليك العين وتضعه في قليل المشاهدة، وإنما يزيدك التشبيه صورة ثانية مثل هذه التي معك ويجتلبها، لكن من مكان بعيد حتى تراهما معاً وتجدهما جميعاً.

وأما في الأولى، فإنك لا تجد في الفرع نفس ما في الأصل من الصفة وجنسه وحقيقته، ولا يحضرك تمثيل الأصل على التعيين والتحقيق، وإنما يخيل إليك أنه يحضرك ذلك، فإنه يعطيك من الممدوح بدراً ثانياً فصار وزان أن المرآة تخيل إليك أن فيها شخصاً ثانياً على صورة ما هي مقابلة له، ومتى ارتفعت المقابلة ذهب عنك ما كنت تتخيله، فلا تجد إلى وجوده سبيلاً، ولا تستطيع له تحصيلاً، لا جملة ولا تفصيلاً.

obeikandl.com